إصلاح منهج التعليم من منظور إسلامي عند العلامة محمد الطاهر بن عاشور

إعداد

د/ محمد قـادة

جـامعة مستغانم ـ الجزائر

المقدمة:

تكتسي قضية التعليم بشكل عام، أهمية قصوى في السياق المعرفي الإنساني وترتبط ارتباطا عضويا بنهضة الأمم وحضاراتها،ولذا جاءت تحمل قيمة كبرى ومعنى خاصا في منظومة العلامة الإمام ـ محمد طاهر بن عاشور ـ المعرفية،وهو يربطها برؤية إصلاحية إنما هو يحاول أن يرمي بها في زمنية مستقبلية قصد التصحيح والبناء لما أدركه من خلل في إرساء معالم ثقافية إسلامية ليس على المستوى الراهن فحسب،بل بعرض ومراجعة على طول المسيرة التاريخية للتعليم الإسلامي.

وبشكل مختلف كل الاختلاف عما ذهبت إليه بعض الأفكار في العالم الإسلامي و تداولاته كممارسات لهذه المهمة يرمي الإمام بن عاشور بهذه العملية في جوهر القضية الحضارية جاعلا منها معضلة أفرزت نتائج سلبية كشفت عن المأساة التي يعاني منها الإنسان المسلم في العالم المعاصر وكذا حاجيات العالم اليوم.

وعلى هذا الأساس يأتي هذا المقال ليرسي بعض المحاور التي ارتأيت أنها تقتضي العرض والإثراء والمناقشة ومنها:

١- سؤال النهضة الكبير (إشكالياته ،تحدياته، مطالبه).

٢- [العلوم الإسلامية والتعليم] على حساب الواقع الراهن والتفكير في ربط الإسلام بالعالم المعاصر.

٣- نهضة الإنسان المسلم من خلال إصلاح أطر التعليم مضامينه، مناهجه، وأصناف التعليم المطلوبة.

ـ وعلى الرغم من أن هنالك مؤلفات عديدة للشيخ ارتبطت بالموضوع كما أن هناك دراسات عديدة حيكت من حوله إلا أن تفاصيله ودقائقه جاءت مترابطة كأفكار ورؤى إصلاحية في مؤلفه ـ أليس الصبح بقريب ـ الذي اتخذنا من محتواه مادة علمية لهذه الدراسة وسندا مرجعيا خاصا.

ـ إن الاهتمام بقضية التعليم وإصلاحه على جميع المستويات يكاد يكون مغفلا ان لم نقل

منسيا بالكامل في واقعنا الآني والراهن . خاصة ونحن نواجه تحديات قوية ثقافية ـ أخلاقية ومعرفية ـ علمية ،وفي الوقت التي ضلت الأمم تعمل وتجتهد على بلورة التعاليم والقيم التي ترسخ مشاريع اجتماعية ـ إنسانية وحضارية مازالت الأمة الإسلامية والعربية على وجه الخصوص تتخبط في ضيق جهلها وفقدان هويتها في سياق الاغتراب والاستلاب و في ظل أطماع وتبعية دفعتها إلى حد الخذلان والانكسار وفقدان الأسس التي ينبغي عليها البناء والتنمية بداية بالتربية ونموا بالعلم ووصولا إلى تكوين الإنسان الأمثل .

١- العلامة الطاهر بن عاشور وفكرة التغيير:

كان الطاهر بن عاشور عالما مصلحا ومجددا، لا يستطيع الباحث في شخصيته وعلمه أن يقف على جانب واحد فقط، إلا أن القضية الجامعة في حياته وعلمه ومؤلفاته هي التجديد والإصلاح التي شملت ميادين عدة وعلى قمتها قضية التعليم وهذا من خلال رؤية إسلامية وليس بعيدا عن مبادئه، ومن ثم جاءت آراؤه وكتاباته ثورة على التقليد والجمود وثورة على التسيب والضياع الفكري والحضاري. في وقت اضطربت فيه معالم الحياة، كان "محمد الطاهر بن عاشور" أحد المجددين والمرشدين لطريق السداد. حياته المديدة التي زادت على ٩٠ عاما كانت جهادا في طلب العلم، وفي كسر أطواق الجمود وتحطيمه والتقليد التي قيدت العقل المسلم عن التفاعل مع القرآن الكريم والحياة المعاصرة. أحدثت آراؤه نهضة في علوم الشريعة والتفسير والتربية والتعليم والإصلاح بشكل عام. ولم يلق الشيخ تمام حقه من الاهتمام به و باجتهاداته وأفكاره الإصلاحية؛ وربما رجع ذلك لأن اجتهاداته تحارب الجمود العقلي والتقليد من ناحية، وتصطدم بالاستبداد

من ناحية أخرى. كما أن أفكاره تسعى للنهوض والتقدم وفق منهج تعقلي إسلامي، ولعل هذا ما يبين سبب اصطدام بقايا الاستعمار في ترسيخ المبادئ والقيم الغربية بالمناهج الإسلامية في التعليم وعليه فيمكننا طرح الأسئلة الآتية : لماذا غاب المجددون عن حياتنا الثقافية والفكرية ؟ هل هو انتحار فكري ؟ أهو ضعف في الشخصية الإسلامية يدفعنا إلى الاكتفاء بالتقليد ؟ أم هو تكريس للاستلاب والاغتراب انتهى بنا إلى البزوغ كأصنام أو أقنعة ليس غير؟

٢- دوافع التغيير والإصلاح:

من هنا ينبغي بناء المرجعية الفكرية والعقدية بغية النظر إلى الإمام الطاهر بن عاشور ومؤلفه -أليس الصبح بقريب - من هذه الزاوية إذ يقول: كان واجبا علينا خدمة للملة وتهيئة للنشأة العلمية). وهذا بعدما ألحت العرب كثيرا على تلقين الأخلاق والصفات كل حسب موقعه الاجتماعي وكذا تلقين الفصاحة - اللسان - وهذا بالحث على ترك الاختلاط بمصاهرة غيرهم من الأمم وترك المقام بمدائن مجاوريهم من العجم قديما .

وفي موضع آخر من كتاب -مقاصد الشريعة الإسلامية -يرى الشيخ أنه من الدوافع والأهداف التي أنبنى عليها إصلاح التعليم :إنتاج قادة للأمة في دينها ودنياها) ولعل أهم ما ينبغي أن يركز عليه التعليم في كل الأحوال هو ترقية الفضيلة وهو أول الأشياء وأجملها. لذا نجده يؤكد على أن التعليم العام إن صلح عم به الصلاح وان كان فاسدا شقيت به الأمة كلها وتذبذبت في معرفة مركزها وساءت اعتقادا في حالة جهلها . وجاء موقع الشيخ في عصر يموج بالدعوات الاصلاحية التجديدية التي تريد الخروج بالدين وعلومه من حيز الجمود والتقليد إلى التجديد والإصلاح، والخروج بالوطن المسلم من مستنقع التخلف والاستعمار إلى ساحة التقدم والحرية والاستقلال، فكانت لأفكار بعض العلماء من أمثال جمال الدين الأفغاني وغيره صداها المدوي في تونس وفي جامعها العريق من خلال تطلعاته واجتهاداته، حتى إن رجال الزيتونة بدءوا بإصلاح جامعهم من الناحية التعليمية قبل الجامع الأزهر.

ورأى أن تغيير نظام الحياة في أي من أنحاء العالم يتطلب تبدل الأفكار والقيم العقلية،(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الاية ١١ من سورة الرعد ويستدعي تغيير أساليب التعليم. وقد سعى الطاهر إلى إيجاد تعليم ابتدائي إسلامي في المدن الكبيرة في تونس على غرار ما يفعل الأزهر في مصر على الرغم من العراقيل الكبيرة التي كان يلقاها .أما سبب الخلل والفساد الذي أصاب التعليم الإسلامي فيرجع في نظره إلى فساد المعلم، وفساد التأليف، وفساد النظام العام؛ وأعطى الأولوية لإصلاح العلوم والتأليف وهذا هو بيت القصيد .وتواكبت هذه النهضة الإصلاحية التعليمية في زمنها مع دعوات مقاومة الاستعمار الفرنسي، فكانت أطروحات تلك الحقبة من التاريخ ذات صبغة إصلاحية تجديدية شاملة تنطلق من الدين نحو إصلاح الوطن والمجتمع، وهو ما انعكس على تفكير رواد الإصلاح ومنهجهم في تلك الفترة التي عرفت نشاطا ثقافيا واجتماعيا كثيفا تدعم بتأسيس الصحافة، وصدور المجلات والصحف التي خلقت مناخا ثقافيا وفكريا كبيرا ينبض بالحياة والوعي والرغبة في التحرر والتقدم ،مما أثار إعجاب الإمام محمد عبده الذي قال: "إن مسلمي الزيتونة سبقونا الى إصلاح التعليم، حتى كان ما يجرون عليه في جامع الزيتونة خيرا مما عليه أهل الأزهر في مصر).

٣- مجالات إصلاح التعليم :

نجد الكثير من المصادر المعنونة بموضوع الإصلاح المؤسسي والمنهجي للتعليم الديني لا تروي قصة التجارب الإصلاحية في مناهج الدراسات الدينية ولا خلفياتها الفكرية ومقاصدها الحقيقية بشكل مجرد خالص. واقتصر الكثير منها على الاهتمام بجانب التحليل السياسي وتغطية حركة الإصلاح في هذا البعد بشكل مفصل في بعض الأحيان، وغفلت جانب الإصلاح في القواعد العلمية والفكرية والمنهجية التي انطلقت منها جهود الإصلاح الديني والكيفية التي تعاطت بها مع مؤسسة التعليم الديني وحواضرها. يضاف إلى ذلك أن بعض تلك المصادر ركزت اهتمامها على الجوانب الإصلاحية الموروثة عن الطبائع الاستعمارية وهو الطابع الذي لا يزال يكرس إلى يومنا هذا حتى صنعنا من هذا الواقع التربوي والتعليمي

وضعا يراهن على اقتراض المناهج الغربية ولاسيما في المجال الأكثر حساسية وهو المجال الإنساني والاجتماعي والتاريخي.

وبعد أن نشطت عملية إصلاح مناهج التعليم الديني وتجديدها وتطويرها في بعض مساعيه تكشفت للكثير من طبقات المجتمع أن تلك المساعي كانت أخذا حقيقيا بالأمة نحو معايشة مثال الإنسان الحضاري وإسهامه جادة في تحولاته بشكل أساس وفعال بلا خروج على متطلبات حدود الشريعة وإشرافات التعقل وأنوار الحكمة وشروط وضع الاشياء في موضعها بلا إفراط ولا تفريط. كما لمست طبقات المجتمع أن هناك تجنبا مؤكدا عن فكرة الانقلاب على الموروث الديني وبعدا عن غرض صناعة بدائل تعليمية مبنية على الالتقاط والاستنساخ عن بيئة وافدة. وشملت عناية الطاهر بن عاشور إصلاح الكتب الدراسية وأساليب التدريس ومعاهد التعليم: فاستبدل كثيرا من الكتب القديمة التي كانت تدرس وصبغ عليها الزمان صبغة القداسة بدون مبرر، واهتم بعلوم الطبيعة والرياضيات، كما راعى في المرحلة التعليمية العالية التبحر في أقسام التخصص، وبدأ التفكير في إدخال الوسائل التعليمية المتنوعة.

٤- أهمية كتاب: أليس الصبح بقريب:

بدأ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بمساعدة ثلة من الأنصار الأوفياء في تخطيط مراحل الإصلاح وتطبيق النظم التي يراها كفيلة بتحقيق الهدف الذي يصبو إليه للخروج بهذا المعهد العظيم من كبوته "بعد أن تكلم عن أساليب التعليم "الزيتوني" ومناهجه بلسان النقد في كتابه - أليس الصبح بقريب - والذي ضمنه رؤيته للإصلاح وحدد فيه أسباب تخلف العلوم مصنفا كل علم على حدة وعد أن إصلاح حال الأمة لا يكون إلا بإصلاح مناهج التعليم والقيام على هذا الجانب. كتب كتابه هذا وعمره لم يتجاوز الخمس والعشرين سنة مما يدل على أن هذا الشيخ الجليل كرس حياته للنهوض بالجامع الأعظم وبالتالي على مكمن الداء في تخلف الأمة، ولئن أحس الشيخ بجسامة المهمة والبون الشاسع بين واقع المسلمين وما وصلت إليه الأمم الغربية من امتلاك أسباب النهضة والرقي إلا أنه لم يدخر جهدا ولم يثن عزما في السير في هذا الطريق المليء بالأشواك .لقد شملت عناية الشيخ

محمد الطاهر ابن عاشور إصلاح الكتب الدراسية وأساليب التدريس ومعاهد التعليم وهي إحدى المحاور الهامة التي تم التركيز عليها في محتويات مؤلفه . وقد اهتمت لجان من شيوخ الزيتونة بتشجيع منه بهذا الغرض. وبعد النظر في الكتب الدراسية على مختلف مستوياتها ،عمل الشيخ على استبدال كتب كثيرة كانت منذ عصور ماضية تدرس وصبغ عليها قدم الزمان صبغة احترام وقداسة موهومة.وهذا ما يراه الشيخ أن له أثره السلبي على تخلف العلوم عند المسلمين.

لقد حرص الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور على خاصيتي التعليم الزيتوني الصبغة الشرعية - واللغة العربية وهو مجال ناقش قضاياه العلامة :الشاطبي في كتابه (الموافقات) من قبل ، وللوصول إلى هذا الهدف لابد من تخصيص كتب دراسية شهد لها العلماء بغزارة العلم وإحكام الصنعة وتنمية الملكات في التحرير ليتخرج من "الزيتونة" العالم المقتدر على الخوض فيما درس من المسائل وتمحيصها ونقدها. ولتحقيق هذه الأهداف ، دعا الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور المدرسين إلى التقليل من الإلقاء والإكثار من الأشغال التطبيقية. حتى تتربى عند الطالب ملكة بها يستقل في الفهم، ويعول على نفسه في التحصيل على ثقافته العامة والخاصة. وقد حث المدرسين على نقد الأساليب والمناهج الدراسية واختيار أحسنها أثناء الدرس ومراعاة تربية الملكة، بدلا من شحن الذهن بمعلومات كثيرة قد لا يحسن الطالب التصرف فيها. فكانت دعوته للإصلاح ذات بعدين . بعد تنظيري وبعد تطبيقي ميداني .

5- تطوير العلوم :

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في كتابه -أليس الصبح بقريب - ،إيذانا منه بقرب النصر واستعادة الأمة مجدها وتخلصها من المستعمر الفرنسي الذي باغتها في عقل دارها: "رأيت الذي يطمع في البحث عن موجبات تدلي العلوم يرمي بنفسه إلى متسع ربما لا يجد منه مخرجا في أمد غيره طويل، وأيقنت أن لأسباب تأخر المسلمين عموما رابطة وثيقة بأسباب تأخر العلوم) ،حينها أحس الشيخ ابن عاشور بقيمة العلم في سبيل نهوض الأمة وحاول من خلال كتابه المذكور أن يقدم بديلا لما ساد في أوساط الجامع المعمور من مناهج لتدريس الطلبة العلوم

الشرعية التي توارثها الأجيال أبا عن جد دون نظر عميق وإهمال للرأي، الامر الذي مكن الغرب بالتالي من استحكام سيطرته على العالم الإسلامي .

وقبل أن يسرد أسباب تأخر العلوم ، قدم نظرته ورسم منهجه في التعامل مع العلم وأطواره، فقسم العلوم قسمين من جهة ثمرتها :

١ـ ما تنشأ عنها ثمرة هي من نوع موضوعات مسائله، كعلم النحو فثمرته تجتنى منه وهي ثمرة لفظية محضة .

٢ـ ما يبحث عن أشياء لا لذاتها بل لاستنتاج نتائج عنها . مثل علم التاريخ والفلسفة والهندسة النظرية وأصول الفقه وغيرها، فبالتاريخ يستعين مزاوله على عقل التجارب وتجنب مضار الحضارات والأخطاء التي وقعت فيها الأمم السابقة، والفلسفة تنير العقل وتدربه على فتح أبواب الحقائق وهذه الأشياء لا تقرأ في الفلسفة وإنما يتعودها الذهن في خضم ممارساته ومثل ذلك علم البلاغة الذي اتخذ منه الشيخ بن عاشور مرجعية هامة في تفسير القرآن الكريم (التحرير و التنوير) والرد بالنقد على التفاسير السابقة وجميع العلوم البرهانية النظرية، وأصول الفقه في فلسفة الاستنباط .و في واقع الحال هذه نظرة معرفية موسوعية تتداخل فيها جميع العلوم ولا تقوم على مبدأ التصنيف .ولقد احتوى تفسيره "التحرير والتنوير" على خلاصة آرائه الاجتهادية والتجديدية؛ إذ استمر في هذا التفسير ما يقرب من ٥٠ عاما، وأشار في بدايته إلى أن منهجه هو أن يقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين، تارة لها وأخرى عليها فالاقتصار على الحديث المعاد في التفسير هو تعطيل لفيض القرآن الكريم الذي ما له من نفاد، ووصف تفسيره بأنه احتوى أحسن ما في التفاسير، وأن فيه أحسن مما في التفاسير وتفسير التحرير والتنوير في حقيقته تفسير بلاغي، اهتم فيه بدقائق البلاغة في كل آية من آياته، وأورد فيه بعض الحقائق العلمية ولكن باعتدال ودون توسع أو إغراق في تفريعاتها ومسائلها. وقد انتقد بن عاشور كثيرا من التفاسير والمفسرين، وانتقد فهم الناس للتفسير، ورأى أحد أسباب تأخر علم التفسير هو الولع بالتوقف عند النقل حتى وإن كان ضعيفا أو فيه شيء من الوهم ، وكذلك اتقاء الرأي ولو كان صوابا حقيقيا، وقال: لأنهم توهموا أن ما خالف النقل عن السابقين إخراج

للقرآن عما أراد الله به فأصبحت كتب التفسير عالة على كلام الأقدمين ولا هم للمفسر إلا جمع الأقوال، وبهذه النظرة أصبح التفسير تسجيلا يقيد به فهم القرآن ويضيق به معناه وهي في الآن نفسه إسقاط لبذرة الاجتهاد والمبادرة. يضيف في كتابه -أليس الصبح بقريب - ليقول كلمته الحاسمة في التعامل مع العلوم بمنطق النقد والتطوير دون الخروج عن أدب الالتزام بمناهج القدماء من سلف الأمة، فيقول :- وإن أطوار العلوم في الأمة تشبه أطوارها في الأفراد ذلك أن العلم في الأمة كما هو في الفرد له أربعة أطوار :

١- طور الحفظ والتقليد والقبول للمسائل كما هي من غير انتساب بعضها من بعض ولا تفكر في غايتها بل لقصد العمل .

٢ -طور انتساب بعضها من بعض وتنويعها والانتفاع ببعضها في بعض .

٣- طور البحث في عللها وأسرارها وغاياتها .

٤- الحكم عليها باعتبار تلك العلل بالتصحيح والنقد وهو طور التحقيق والتحرير .

استنتاجات عامة :

١- الملاحظ على الشيخ من خلال كتابه -أليس الصبح بقريب- أنه وعلى طول الخط من تطور العلوم لم ينفصل التعليم عن المعطيات الدينية ان لم نقل كانت هي الوازع والباعث والمؤطر. وأكثر من ذلك ينبغي أن نعمل على ترسيخ فكرة الإسلام باعتباره أكثر من ديانة فهو في واقع الأمر منهج حياة كامل متكامل يغطي جميع مجالات الحياة الدينية والدنيوية ويندد بمعطيات العالم الآخر.

٢- كان على الشيخ أن يراعي توزيع العلوم وترتيبها وفق مبدأ العلم بخلقه وهي العلوم الوضعية . العلم بأمره وهي العلوم الشرعية. العلم به وهي العلوم الروحانية أو العرفانية التي تحاول فهم النفس وتزكيتها وترتقي الإيمان بالذات الإلهية من خلال العلم بخلقه والعلم بأمره وهكذا نكون قد ربطنا بين أنواع العلوم ربطا عضويا في دورية متكاملة.

٣- ركز الشيخ على إعطاء أهمية الى الجانب النسوي ،فللمرأة حقها في التعليم

ووظائف التربية وكان عليه أن يضيف بعض التحاليل للظروف التي تحكم المرأة المسلمة في العالم الحديث وعندها أقتضى الأمر أن نضع شروطا شرعية تعطي للمرأة حقها في التعلم في اطار شرعي . فهل يوجد هناك نظام فكري يتيح للمرأة فرصة الحياة السعيدة والوظيفة الاجتماعية أفضل من النظام الإسلامي؟

٤ـ هناك بعض المصطلحات التي يجب مراجعتها مثل : حكى القرآن – الاديان – العقل ...الخ وقد تكررت كثيرا في متن الكتاب لما له من أهمية وعلينا مراجعتها.

الحكاية : لفظ أدبي يطلق على الصناعة الخيالية التي يطغى عليها طابع الخرافة ، في حين علينا مراجعة هذا المصطلح وما له من دلالة في سياق تطوره الأدبي كما تقتضي الحاجة أن نتأدب مع كلام الله المنزل والحديث النبوي الشريف.

الأديان : هذا اللفظ بصيغة الجمع يتكرر كثيرا في عناوين الكتب ومحتوياتها على الرغم من أن المقصود من استعمالاته السياقية هو لفظ (الديانات) لأن المنطق يتطلب منا فهم اللفظ بصيغة المثنى باعتبار دين الحق ودين الباطل والباطل تتعدد أوجهه ـ

العقل : جاء لفظ (العقل) في السياقات القرآنية على حالة الفعل مصرف في أزمنة مختلفة ثم ازداد القرآن شرحا وبلاغة حينما أكد فعل التعقل بأن مصدره القلب وهي آية تمحو كل اعتقاد لدى أولائك الذين يزعمون أن العقل ملكة انسانية أو جوهر ثابت موقعه الدماغ وعقل المعرفة هو رصيدها الذي يكون أقرب ما يكون مرتبطا بالوعي ،((أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها...)) الآية ٤٦ من سورة الحج .

المراجع :

١ـ أليس الصبح بقريب ـ التعليم العربي الاسلامي ـ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور دار سحنون للنشر والتوزيع ـ تونس

٢ـ التحرير والتنوير ـ تفسر القرآن ـ المؤلف نفسه

٣ـ مقاصد الشريعة الإسلامية ـ المؤلف نفسه

٤ـ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ـ المؤلف نفسه

٥ـ أصول الإنشاء والخطابة ـ المؤلف نفسه

٦ـ موجز البلاغة ـ المؤلف نفسه